

الاييمان بالعربية

بمكة الحسنة السائفة

رئيس مصلحة التعليم ارضى

هذه المغالطات (المشكورة) التي جعلتنا ن فكر باستقامة ومنطق في الموضوع، لندحض المغالطات، وبالتالي لندحض المشيكة ذلك اننا لن نتنازل عن واقعتنا، لان التنازل عنها معناه محق معالم شخصيتنا وجعلنا فريسة سهلة الهضم في فم الاستعمار الذي خلق المشيكة وربط العقد ، وأنسار المغالطات وان مغالطات الاستعمار ومحاولاته للتضليل ليست موجهة الى اللغة الا باعتبارها مفتاح حضارتنا وتاريخنا وشخصيتنا .

فالاستعمار اعتدى على الضمائر ، واعتدى على الملكيات ، واعتدى على العقائد ، فكان الراهب يبشر ثم يأتي بعده التاجر ليقامر ، ثم يأتي بعده الجندي ليحتل ثم يأتي السفير ليمثل، وأخيرا يصل المعلم ليتم المأمورية التي لا تنتهي في حلقاتها المستديرة ؟ من تعليم أولى الى تخصص الى فنيات .. الخ الخ .

كانت مهمة الاول احداث الفراغ العقائدي ، ومهمة الثاني احداث الفراغ الاقتصادي ، ومهمة الثالث احداث الفراغ العسكري ، ومهمة الرابع احداث الفراغ السياسي ، ومهمة الاخير أى المعلم محو اللغة القومية وتمطيل الفكر ثم تكوين (بوفارية ايدولوجية) . فمهمة المعلم هي أهم وأخطر ، هدفها مقاومة التعليم المحلى وإغلاق المدارس وإطفاء نوز المساجد ليلا لئلا يلتقى المؤمنون بعقيدتهم ولسانهم وتاريخهم المتلى بثقافة ولو كانت منحطة خشية أن تدب فيها الحياة ، تلك الثقافة التي لم تكن منحطة ، وانما هي بقية روح فى جسم معذب ؟

هناك واقعات مسلمات لا سبيل لرفضها ، بل لا سبيل لمناقشتها دون أن تكتسى هذه المناقشة صبغة خالية من كل أسس الموضوعية والايجابية ، وهذه الواقعات هي :

أولا - (المغرب بلاد عربية) عربية جنسية وقومية وتفكيريا ، ولغة وتاريخا وعقيدة ومعركة وكفاحا أيضا .
ثانيا - المغرب خرج من معركة الكفاح ضد الاستعمار ، الاستعمار الذى لم نعرف خطورته بدقية حتى حططنا أغلاله ، وان من يتفشاء ضباب السهول لا يعرف ضباب السهول ، حتى يشرف عليه من القمة ، ان للاستعمار مخططا خطيرا ، وأخطبوط زحف لمحقتنا ، وما يزال ؟ فاذا حططنا الاغلال الحديدية فان افكارنا ما تزال موثقة ، وان السننتنا ما تزال لم تحل عقدها ..
وانه سيربط اقتصادنا بعجلاته .

ولنخرج من منطقة الاستعمار ... ولنحيا ولنعميش لا بد لنا من السير في طريق بناء نهضة ، وفي خلق مستقبل مقدود من واقمتنا . فكيف السبيل الى ذلك ؟

لا بد من مكافحة الاستعمار بسلاحه أى بالدراسية العلمية الصحيحة الحديثة وبالاطير الفنية والادارية والصناعية وبالانتاج الذى يحمينا من الاسواق الخارجية .

وفي هذه المجالات تكمن المشيكة ! أو ما يمكن ان يسمى بالمشيكة ، فهل نسير مع العواطف والتاريخ والامجاد فنستعمل لفتنا للبناء ، أم نسير مع البناء والتصنيع والمستقبل ، فنأخذ لغة الغير العلمية للبناء .
وهنا أيضا تبرز المغالطات .

ويتعاون السيف والقلم الاستعماريان، السيف لفتح الثقافة المحلية أو لقتل الروح في الأمة بعد احتلالها والقلم لملء الفراغ وأداء المهمة التمدنية التي ما تزال تعاني الكثير منها ..؟ وستزيد مضاعفتها إن لم نذبح بايمان في معركة التعريب .

وإذ كان للمستعمر مغالطات فله جهالات باليدييات لان المغالط لا بد أن يغلط ؟

اذ الثقافة لا تموت أبدا ومن السهل أن نتكلم بلفتنا مهما كانت مهلهلة لنحقق أفكارا عميقة في نفوسنا ولنعرف بسهولة أننا عندما نتكلم أو نفكر أو نعمل في جو المستعمرين وبلغتهم تكون أجنبي .

إن المستعمرين في مغالطتهم زوروا حتى الحقائق التي تبقى على معالم شخصتنا التاريخية واللغوية ؟

فهل يجوز عقلا أن تكون أمة بغير لغة عاشت أمادا كثيرة يفيض حضارتها العلمية ، أو أن تكون هذه اللغة لا تستطيع أن تعيش من جديد بعد أن حاصرها أعداؤها قرونا من الزمان . لقد هدف أعداء اللغة العربية الى احتلال بلادنا أو اقتصادنا ، وهدفوا قبل كل ذلك أو بعد كل ذلك الى قتل لفتنا ليحولوا بيننا وبين تاريخنا وبذلك يصبح أمة بدون تاريخ نرجع اليه ، ونتجه الى امداداته وفيضه . انه لا يجوز عقلا ان تكون أمة بدون تاريخ لغوي .. وهذه مغالطة خطيرة من مكائده ، لا يوازيها في مغالطاته الا موقفه من تاريخنا الحضاري الذي يعتبر بدايته يوم أن زرعنا بمدافعه ، فهل يجوز أن يقسم التاريخ الى مرحلتين : ما قبل الاستعمار وبعدها عصور الجهالة بما فيها من عصور مقاومة الرومان والوندال والبيزنطيين وعصر الادارسة والمرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين والعلويين ، أى يسوع قاومنا أعظم امبراطورية رومانية فحطمنا كبرياها على يد حنبعل ويوم أصبحت افريقيا الشمالية والاندرلس موحدين تحت قيادة المرابطين والموحدين ويوم كان الامباتذة المقاربة يعلمون بايطاليا وسويسرا وفرنسا أقول هل يجوز أن نقسم التاريخ الى مرحلتين المرحلة الاولى هي مرحلة عزنا ومع ذلك لا نجد محلها في (السكولاتيكا التاريخي) بل يحرص على تسميتها عصور الجهالة . ويقابل بها عصر المدنية والنور يوم استعبدنا وأفقدنا قوتنا ولساننا وتفكيرنا واقتصادنا وقياداتنا

فانكشنا على أنفسنا مقوقين في حدود ضيقة فرضت علينا .. ثم سلب حتى ماضينا اللغوي وحاضرنا اللغوي فأصبحنا أمة خرساء وبدون تاريخ .

ان الحقائق لا تموت أبدا ... فمن هذه الحقائق ومن هذا التاريخ ؟ ومن حضارتنا سنستمد القوة لتتحرك من جديد طبعاً بعد القضاء على المغالطات وحل المشاكل وتفتيت النفايات .

وإذن فلا بد من الاحتفاظ بلفتنا وحضارتنا وتاريخنا ، ونحن نتساءل الآن هل تستطيع لفتنا أن تبعث عنا شبح الاستعمار بعد ان أصبحت هي الامل الوحيد لمقاومته . هل في استطاعتها ان تصبح لغة علمية كاللغة الفرنسية والانجليزية والالمانية مثلا ؟

وهنا يجب أن نتجنب العاطفة ، وهنا يجب أن نكون رياضيين في منهج البحث لا مؤرخين ولا منطقة .

أقول أولا نعم - ولكن بشروط ، والشروط الضرورية للتعريب هو الايمان به وقبل ذكر الشروط الاساسية الاخرى يجب أن تقسم مناطق التعريب ، الى تعريب التعليم ، وتعريب الادارة ، وتعريب الفكر ، أما عن التعليم فهناك سؤالان : (الاول) هل نستطيع التعريب دون خفض المستوى العلمي ، (ثانيا) هل نستطيع أن ندرس العربية ثم يمكن لطلابنا أن يتابعوا التخصص العلمي بلغة أخرى ما دمنا في حاجة الى الاستزادة من ثقافة الغرب . أما عن السؤال الاول فالتعريب ممكن وواجب ولن ينخفض المستوى بشرط أن يكون بيد القلوب المشفقة المومنة والعقلية المتوثبة التي لا تخاف ولا تعرف الجمود ، واكبر شوك يضمه المتشككون في طريق التعريب هو الحرص على عدم المزاجية في انتعريب ونضج اللغة ، يعني أن تبدأ بعملية تطوير اللغة وخدمتها في مصانع (المجامع العلمية) قبل اخراجها الى ميدان التطبيق . وهذا تماما كمن يقول بوجود منع الاطفال من الذهاب الى المدرسة حتى يتم تكوين اللغة وتطويرها وهذا خطأ ، لان اللغة كائن حتى يتطور في عقلية الطفل وينمو في رحبات فكره .

ان العربية اذا جاز اتهامها بالنقص ، فهذه التهمة قد توجه لميدان البحث العلمي أما في ميدان التعليم ، ابتدائه وثانويه وعالية ، والادارات فقد جربت وبرهنت عن مقدرة ... وسوف تكون قوية في البحث العلمي

ايضا اذا آمننا بالعربية ونفضنا عن عقلنا هذا الكسل الثقيل ، وهذه الاذن التي نصفى بها لنصائح اعداء اللغة العربية ، وآية ذلك أن اللغة اليابانية أصبحت لغة عليية ولم تكن كذلك من قبل ، وان اللغة الفاييكية لغة ايرلندا أصبحت علمية بعد مهاجمة الانجليزية المستعمرة ، وان اللغات المتعددة الموجودة في ولايات الاتحاد السوفياتي أصبحت لغات علمية حية ، وان اللغة العبرية وهي ابنة عم اللغة العربية أصبحت علمية ايضا ... (واللغة العربية وحدها) هي التي لا تستطيع التطوير بينما هي تمد اللغة العبرية بالكلمات والاصطلاحات .

هذه صيحة استعمارية تجسد آذانا مصغية من اليوفورديين الايديولوجيين المتعشقين للغة من يتأمر على مصرنا ، ان اللغة العربية هي متطورة وقادرة على أن تكون لغة حضارة ، بل كانت لغة حضارة وستصبح كذلك لغة حضارة أما الكافرون بها فهم مثل الذين كفروا بالاستقلال فجاء الاستقلال ، على أننا نجعل عليهم التقدم والتطور أيضا . فقد كانوا تقدميين في عصرهم حيث كان معنى التقدمية الكفر باللغة العربية ، ثم تدرجوا الى الشك في اللغة العربية بعد انتصار الشعب ضد الاستعمار السياسي ، وعسى الله أن يهديهم الى الايمان المطلق بالعربية .

اما باقي قطاعات التعريب الاخرى ، فهي لا تخضع لشروط قاسية ، وليس هناك تخوفات على الاطلاق اذا عرب التعليم تعريبا سليما .

هناك صعوبات كوحدة الكلمة العلمية وتوزيعها بدقة على مختلف المراحل والكتاب المدرسي والعلمي فالتعليم الاجنبي قد تطور وتحسن وتنظم فيجب أن يكون تعليمنا على شاكلته ، والمسألة مسألة تفان في العمل ، والكتاب المدرسي يكون في بلادنا مشكلة ، فهو غسير منسق وغير مستوعب وغير موجه والذين ألفوا جلهم اخترق لبيع الكتاب ولم يؤلف . وجلهم لم يختص في دراسة موضوعية بدقة وبذلك فقد استفادوا ماليا ولم يفيدوا امتهم ولو أديبا بل أضروا بالتعريب والعربية وهكذا ينهزم التعريب في مصالح (الاستغلال) وتقف الام المسكينة اللغة العربية في قفص الاتهام .

لقد اثرت قضية الكتب لانها تشكل عنصرا من عناصر فشل تجربة جانب التعريب وتبدى مدى الخطورة الناجمة عن مشكل عدم التوجيه والمشاكل التي تعترض التعريب في هذا النوع كثيرة فالاستاذ الذي ينعدم ضميره فلا يؤدي درسه بحماس ، والمعلم الذي ينام بجانب اطفال المدرسة الابرياء بينما الاستيائة

ايضا اذا آمننا بالعربية ونفضنا عن عقلنا هذا الكسل الثقيل ، وهذه الاذن التي نصفى بها لنصائح اعداء اللغة العربية ، وآية ذلك أن اللغة اليابانية أصبحت لغة عليية ولم تكن كذلك من قبل ، وان اللغة الفاييكية لغة ايرلندا أصبحت علمية بعد مهاجمة الانجليزية المستعمرة ، وان اللغات المتعددة الموجودة في ولايات الاتحاد السوفياتي أصبحت لغات علمية حية ، وان اللغة العبرية وهي ابنة عم اللغة العربية أصبحت علمية ايضا ... (واللغة العربية وحدها) هي التي لا تستطيع التطوير بينما هي تمد اللغة العبرية بالكلمات والاصطلاحات .

هذه صيحة استعمارية تجسد آذانا مصغية من اليوفورديين الايديولوجيين المتعشقين للغة من يتأمر على مصرنا ، ان اللغة العربية هي متطورة وقادرة على أن تكون لغة حضارة ، بل كانت لغة حضارة وستصبح كذلك لغة حضارة أما الكافرون بها فهم مثل الذين كفروا بالاستقلال فجاء الاستقلال ، على أننا نجعل عليهم التقدم والتطور أيضا . فقد كانوا تقدميين في عصرهم حيث كان معنى التقدمية الكفر باللغة العربية ، ثم تدرجوا الى الشك في اللغة العربية بعد انتصار الشعب ضد الاستعمار السياسي ، وعسى الله أن يهديهم الى الايمان المطلق بالعربية .

اما الازدواجية بالمعنى المتمثل في عدم وحدة اللغة والاخذ بتعلم اللغات ، فنحن أحرص الناس عليه والانسان لا يعرف لغته ما دام لا يعرف لغة غيره كما يقول جوته .

اما عن السؤال الثاني ، يعني ان الدراسة بالعربية في التعليم الاولي والابتدائي تحول دون متابعة الدراسة في العالي بالجامعات الاجنبية ، ما دمننا في حاجة الى تنمية التكوين العلمي للعقلية العربية .

الجواب واضح لان الدراسة بالعربية سوف لا تخلو من وجود ساعات لتعليم اللغات الاجنبية ، وينطوي الجواب على توجيه نظرا لانطواء السؤال كذلك على توجيه .. لان التعليم اذا لم يكن بالعربية وكان بالفرنسية فقط فسوف لا يوجه الا لجامعات فرنسا .. فقط ، ثم اننا لا يمكن أن نلتفت الى الاقلية وننسى الاغلبية على أن هذه مرحلة مؤقتة ويمكن علاجها بعدة وسائل

لقد كنت أتكلم عن ايماني بعروبتي ووجوب تركيز

وإذا كان هناك تباين اليوم فسينعدم ، بل هو ظاهرة لا تخيف ومن حقنا الا تشغلنا اللغة العربية عن نسيان النهوض بالثقافة العربية والحضارة العربية أيضا . وهذا ما يثير عدة قضايا أهمها كون لغتنا ستصبح لغة الثقافة والحضارة .

انا نهتم باصلاح اللغة العربية حقا دون أن نتساءل عن اصلاحات أخرى ، فيجب الا ننسى اصلاح الفكر العربي والثقافة العربية اذ انا لا ننكر أبدا أن انتصار الثقافة العربية يرجع لانتصار اللغة العربية ولكنه انتصار معركة فهل تستطيع الثقافة العربية أن تهاجم من جديد فتنصر ؟ .

واننا نومن بلغتنا ونعتز بعظمتها ونحارب أعداءها من أنصار الانسلاخ الثقافي لاننا سنسعى دائما الى تطويرها انبعاثها الذي هو اتبعنا لثقافتنا .

ان اللغة العربية تسير الى مصيرها الحتمى وهو التطور والوضوح والتقارب مع اللغة العامية تلك اللغة التي لن تصبح أداة ثقافة الفكر او لغة الكتابة الواضحة لتصورها عن أداء الصور المجردة لانها لغة الحديث المختزلة السهلة لهذا يجب دائما أن توجه جهودنا للغة الفصحى قصد تبسيطها . ولا يمكن أن نتكهن متى يتم اكتمال اللغة العربية ، لأن نقص الموضوعية والزمان فى عملية البحث يمنعنا من تحديد ذلك .

ان اللغة العربية تسير ولكن المؤسف أن ينقصها التوجيه وتكامل الكفاح ، وهى تسير الى التطور والتقدم لانها لغة حية ولغة ماض ، وان الذين تعتمد عليهم اللغة فى سيرها ليسوا اساتذة الجامعة ولا المحاضرين ولكنها تعتمد على التطور الطبيعى التلقائى والتطور التدريجى المائل فى التعليم والكتاب والصحافة والاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح .

وإذا كنا نعلم على التطور الطبيعى فاننا نعلم كذلك على العلماء اللغويين الاخصائيين لمواجهة مشاكل العربية تلك المشاكل التي لا تحل نفسها بنفسها بل تحتاج الى عملية

فهناك مشكلة الحرف العربى مثلا .

وهناك مشكلة الطباعة .

وهناك مشكلة النحو والصرف المعقدين .

وهذه مشاكل يجب الا تخيفنا لانها مشاكل اللغات الحية .

الاجنبية ترعى الاطفال فى حنان ورفق ، والمدير الذى يشعر أنه موظف فقط يتفرج من بعيد على سير الاحداث ويرفع كنفه ازاء تساؤلات تلاميذه عن مستقبلهم وتقاليدهم ولغتهم ، بجانب المدير الذى يسهر على طلابه وتلاميذته فى توجيه عميق لمصلحة بلادهم ... وكذلك المصالح التي ترفض الرسائل اذا كتبت بلغة العرب وتهتمها بعدم الوضوح بجانب الرسالة المقدسة المحترمة المكتوبة من اليسار الى اليمين .

كل هذه الصعوبات تواجه التعريب ، وتهلّل الايمان بالتعريب .

هذه مشاكل وصعوبات ومغالطات تثيرها قضية الايمان باللغة العربية أما المشكل الحق الذى تواجهه اللغة ، فان المكتب الدائم للتعريب يضطلع مع المجامع اللغوية بمهمة العمل لايجاد الحلول المناسبة له .

وخدمات المجامع تنمر اذا وجدت المجال المؤمن بها ، فعلى ان نثق بحقيقة حضارتنا قبل الايمان بالازدواج الحضارى . فهناك حضارتان ، الحضارة العالمية التي تكشف عن معنى زمانى هو التجمع والتقدم وحضارة محلية تعتمد على الابداع ، ولأجل خلق حضارتنا الشعبية لا بد من أدائها اللغوية لان تفككها يعنى الفراغ وبالتالي تحل محلها لغة أخرى بطريقة لا شعورية .

فاللغة أداة الفكر ولا بد من اعتمادها على المناخ الفكرى لاداء المعانى الحضارية اذ ان الحضارة والمدنية ، والثقافة ، لا بد لها من الاداة ، وان القومات الثقافية لاي شعب من الشعوب تتمثل فى اللغة التي تستوعب الفاظها ومدلولات كلماتها والعبارات والامثال المستعملة فيها القيم العليا وقضايا المعرفة . وهذه القيم وهاته القضايا هي التي توجه الافراد وتحدد علاقة بعضهم ببعض كما تحدد علاقتهم بالمجتمع ، سواء المجتمع القومى أو المجتمع الانسانى .

ان حضارتنا وليدة لغتنا ، ولغتنا وليدة حضارتنا وحضارتنا هدفت الى الخير والسلام فعلى ان ندعم هذا السلام ولن تكون حضارتنا بغير لغة .

وأنا أعتقد أن هناك تبايناً فى حضارتنا العربية والحضارة الغربية اليوم .

إذا ألقينا النظر على المستوى الثقافى وحاولنا البحث عن قيمة الحضارة وجوانبها الفكرية والروحية والمادية .